العمارة في العراق من العام ١٩١٤حتى ٢٠١٤: من ما قبل الحداثة إلى التحدّيات المبهمة

د. خالد السلطاني
د. سيسيليا بيري

في بداية الحرب العالمية الأولى وعهد الانتداب البريطاني، مائلت غالبية المدن العراقية المدينة التقليدية في العالم العربي الإسلامي، بمعزلٍ عن بعض عمليات التحديث التي جرت في فترة التنظيمات. وقد أوت بعض المدن (بغداد، الموصل، كركوك) سكّانًا متعدّدي الثقافات. وما زالت حقبات التطوّر المعماري والمدينيّ المتتالية في العراق، التي غالبًا ما استُخدم فيها الطوب، واضحة لنا اليوم. وبالفعل، تطوّرت هذه المدن اعتمادًا على مبدأ التوسّع بدلًا من التدمير أو التكثيف.

العمارة في العشرينات والثلاثينات: من التقليد المستحدث إلى التوليف الحديث

سنرصد أولًا الأسباب والعوامل التي نتج عنها ظهور عمارة الحداثة بالعراق، جرّاء التحولات الكبرى التي طرأت على البيئة المبنية أثناء فترة الاحتلال البريطاني (١٩١٧–١٩٢١)، وعند تشكل الدولة والملكيّة العراقية الحديثة في آب ١٩٢١. إن المتطلبات الجديدة التي أفرزتها تلك الظروف وحاجة البلد الحديث لمختلف المباني، وكذلك ظهور المواد الإنشائية الجديدة، وتأسيس دوائر عامة تكون معنيةً في الشأن المعماري والبنائي، فضلًا عن وجود، ولأول مرة، معماريين مهنيّين مؤهّلين أكاديميًا، كرّس مفهوم الحداثة المعمارية وسهّل ظهورها السريع في المشهد البنائي. فالنماذج التصميمية المبنيّة في هذه الفترة، جديرةٌ ليس فقط بالتأمل، وإنما يتعيّن الحفاظ عليها كجزء من الإرث الثقافي الغنيّ الذي أنجزه الشعب العراقي.

أهم الأبنية وأكثرها، التي صُممت وأُنشئت في العراق، كانت تقوم بها دائرة أمور الأشغال العمومية، التي أسّسها البريطانيون حديثًا. وأعمال هذه المديرية، التي حدّدت السمات الفنّية الرئيسة، وتنوّع المعالجات المعمارية في سير البنيان وتطوّره، أثّرت على جميع ممارسات الدوائر الأخرى المختصة بشؤون التصميم والبناء، كدائرة الأوقاف، الدائرة الهندسية في وزارة المعارف وأمانة بغداد. وقد استُحدثت وظيفةُ جديدة، هي معمار الحكومة، فأُوكل إليه تصميم وتنفيذ أبنيةٍ متعددة الوظائف، تلبّي حاجة الدولة الفتية. وتوالى في تسلُّم هذا المنصب معماريّون ومهندسون بريطانيّون عقب احتلال العراق وبعد تأسيس الدولة، وهم: اتش. سي. ميسون، جي. بي. كوبر وجاكسون ومساعده باكستر، وهذا حتى نهاية العام ١٩٣٦، عندما تولّى أحمد مختار المنصب، وهو أول عراقي يشغله. ثم أُلغي المنصب، مع الأسف الشديد، في العام ١٩٤٠.

من أولى المشاريع في العاصمة هو مجموعة أبنية جامعة آل البيت، ذاك المشروع الطموح ذو المقياس الكبير، والذي أثّر على العمارة العراقية الحديثة في كونه أوّل صرح عامّ يستغني عن الفناء الداخلي التقليدي. ونمت الممارسة البنائية في عقد العشرينات عبر تداخلات وتقاطعات نهجويّة بين طرق البناء التقليدية وأساليب العمارة الحديثة. وهكذا اتّسم النشاط البنائي في الثلاثينات بالتوليف الحديث، كما أسهمت الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تلك الفترة بإيجاد أرضية مناسبة للانعطافات المعمارية الكبيرة. فالعراق كان تبوّأ مركزه السياسي المرموق كدولةٍ مستقلةٍ في الخارطة الإقليمية والعالمية، بعد انضمامه إلى عصبة الأمم (١٩٣٢)، وذاك انعكس على تطوّره المعماري.

ومن الأمور المهمة التي عجّلت في إرساء السياقات المؤثرة بالبيئة العمرانيّة في الثلاثينات، كان وجود مؤسّساتٍ خاصةٍ معنيةٍ بتنظيم العمل البنائي وتحسين نوعيته. ولم يقتصر عمل هذه المؤسسات على مواكبة الجانب التطبيقي لعملية البناء، بل اهتمت أيضًا في إبداء مقترحاتٍ وتوصياتٍ أفضت في النتيجة إلى سنّ قوانين وتشريعاتٍ لعبت دورًا أساسيًا في خلق وتنظيم البيئة المعمارية الجديدة، كقانون البلديات الذي شُرّع في العام ١٩٣١، وقانون الطرق والأبنية في العام ١٩٣٥، ذاك الذي ساهم في التكوين المدينيّ والعمرانيّ في جميع المدن العراقيّة حتى الثمانينات.

ويتميّز هذا العقد في أن مُنتجه التصميمي نشأ عن تعاونٍ وثيقٍ بين المعماريين والمصمّمين والبنّائين والحرفيين (المحليين وغير المحليين)، الذين كانوا أصحاب القرار التصميمي المفضي إلى ابتداع «بانوراما» عمارة الثلاثينات. كما أفرز عقد الثلاثينات ظاهرة جديدة لم تكن مألوفة في السياقات التصميمية، وهي ظاهرة البناء وفق ما يُعرف بالبيانات المصوّرة، أي «الكاتالوغات»، الصادرة في أوروبا، خاصّةً في فرنسا وبريطانيا وإيطاليا. وانتشرت موضة المكاتب التي تُعنى بتقديم أنواعٍ مختلفةٍ من التصاميم المعمارية المنشورة في هذه «الكاتالوغات»، وكان يُترك للزبون حرية اختيار التصميم الذي يناسبه، فيما يتكفّل المكتب المحلي بالتنفيذ. واتّسمت هذه التصاميم التي كانت تتّبع الأسلوب التوليفي بكثافةٍ فائقةٍ من العناصر الزخرفية والمفردات المعمارية الأجنبية. وأخيرًا، تميّز عقد الثلاثينات بظهور أحمد مختار إبراهيم في عام ١٩٣٦، كأول مهندسٍ معماريٍّ مؤهّلٍ أكاديميًا، وأعقبه آخرون، أمثال حازم نامق وجعفر علّاوي وعبد الله إحسان كامل ومدحت علي مظلوم وسامي قيردار وغيرهم، ممن أنْزوا عمارة الثلاثينات وتخومها بتصاميم رائدةٍ أسهمت في تطور العمارة في العراق.

ولا تقلّ أهمية تحوّلات لغة العمارة في الثلاثينات عن أهمية ما حدث في مجال التخطيط، وعلى نحوٍ خاصٍّ عمارة الأبنية العامة والأبنية السكنية. وأصبح العديد من المرافق العامة معالم عاصمةٍ قيد النمو: مبنى الكلّيّة الطبيّة (١٩٣٠)، مطار المثنّى (١٩٣١)، مكتبة الأوقاف في باب المعظّم (١٩٣١، أُزيلت في الآونة الأخيرة)، مبنى المعرض الزراعي/ الصناعي في باب المعظّم (١٩٣٢، وزارة الخارجية سابقًا)، قصر الزهور (١٩٣٣)، المستشفى الملكي (١٩٣٤)، الضريح الملكي في الأعظمية (١٩٣٦–١٩٣٤)، بناية كلّيّة الهندسة (١٩٣٦)، معهد الفنون الجميلة في الكسرة (١٩٣٦)، مقر وزارة الدفاع في القلعة (١٩٣٦)، دار المعلّمين الابتدائية (١٩٣٦) والنادي الأولمبي في الأعظميّة (١٩٣٩–١٩٣٨).

أمّا بالنسبة لجماليات الأبنية السكنيّة، فقد اتّسمت الثلاثينات بأسلوبٍ توليفيٍّ مزج مختلف المراجع، ومنها الكلاسيكية الأوروبية الجديدة، مع أثرٍ لعناصر تاريخ العراق القديم وتفاصيل من العمارة الاسلاميّة. ونتجت عن ذلك تركيبةٌ خاصّة، نشأت من تداخل حرفة البناء المحلّيّة والتقليدية بالطوب، مع مفرداتٍ زخرفيةٍ جديدة. وتزامن هذا مع استمرار استخدام التماثليّة والفضاءات المركزية الداخلية.

من الحرب العالمية الثانيّة حتى الثورة العراقية: صعود حداثةٍ عالمية

تُبيّن عمارة ما بعد الحرب العالمية الثانية قطعًا واضحًا عن المرحلة السابقة، وذلك عبر تغيّر طبيعة المباني ومقياسها المعماري، وتوظيف مختلف الأساليب والمواد الإنشائيّة الحديثة على نحوٍ واسع، علاوةً على إدخال منظومات الخدمات الهندسيّة المعقّدة في النسيج البنائي. وشهدت الأربعينات اتّجاهًا نحو الأشكال الهندسية المجرّدة، والجماليّات العقلانيّة الوظيفيّة من وحي الباوهاوس، فبدأت الخرسانة المورّقة بالحلول مكان الطوب، في استخدامها بالهياكل والعناصر الزخرفية.

وبحلول الخمسينات ، كان ثمّة أرضية خصبة وجاهزة لتطوّر النشاط المعماري. فالأجواء الثقافيّة في البلاد آنذاك كانت تعجّ بالتغيّرات السريعة والجذريّة، وانعكس ذلك خصوصًا على ميادين الإبداعات الأخرى، كالرسم والشعر والأدب. وازداد عدد المعماريين والمهندسين الإنشائيين، الذين أكملوا دراساتهم في الخارج، أو في كلّيّة الهندسة في بغداد (افتُتحت في العام ١٩٣٧). وكانت المواد الإنشائية الجديدة متوفرةً بأنواعٍ عديدة. وبرزت ظاهرةٌ جديدةٌ في الاقتصاد العراقيّ، تمثّلت في النمو الشاقولي لإنتاج النفط، وما نجم عنه من تراكمٍ ماليٍّ كبير، أدى إلى دفع مشاريع الإعمار والتنمية في العراق قدمًا، ورافق ذلك تراكم رؤوس الأموال لدى البرجوازية المحليّة على نحوٍ أكبر من السابق.

وتأسيسًا على كل ذلك، بدأت تظهر في سماء بغداد ولأول مرةٍ مبانٍ متعددة الطوابق. وهذا اعتُبر حدثًا معماريًا مهمًّا، إذ كانت العناصر العمودية في سماء بغداد مُقتصرةً على مآذن المساجد وقبابها، ضمن كتلٍ بنائيةٍ لا تتعدى الطابق الواحد. ومثّل ظهور عمارة سوفير في شارع الرشيد، التي صمّمها مدحت علي مظلوم في العام ١٩٤٦، صدمةً قوية. تألّف ارتفاع المبنى من أربعة طوابق، وذاك كان كافيًا للإشارة إلى مرحلةٍ جديدةٍ في البناء العراقي. وقد أعقب ظهور عمارة سوفير تنفيذ عمارة الدامرجي التي صمّمها نيازي فتو في ١٩٤٨، التي بلغ ارتفاعها ستة طوابق، وهو ارتفاعٌ شاهقٌ بحسب مقاييس ذلك الزمن. وعلى الرغم من وجود مبانٍ أخرى متعددة الطوابق نُفّذت في تلك المرحلة، مثل عمارة الدفتر دار (عام ١٩٥٣)، التي بلغ ارتفاعها أربعة عشر طابقًا، والمُصمّمة من قِبَل شركة انتركونتينتال الألمانية، والمساهم في توجيه تصميمها عبد الله إحسان كامل، كما مبنى مصرف الرافدين بارتفاعٍ بلغ خمسة عشر طابقًا، والمُصمّم من قبل فيليب هيرست، فقد ظلّ ارتفاع عمارة الدامرجي مؤثّرًا في ذاكرة البغداديين.

وتبدّلت في هذه الفترة أيضًا، أساليب معالجة واجهات المباني. فقد توطّد إكساء الواجهات بمواد مختلفةٍ سواءٌ كان ذلك بمزيج النورة مع الرمل، أو الإسمنت مع الرمل، ويُنسب هذا الابتكار التقني لمهندسٍ هنغاري. وانحسرت حرفيّة البناء، إذ باتت دقّة العمل بالطوب وطريقة رصفه والتأنّي بها، أمورًا غير مطلوبة. وظهرت من ناحية أخرى، تقنيات إنهاءٍ جديدةٍ جمّلت المباني، كالإكساء بالمرمر والحجر. وامتازت مباني المصارف، خصوصًا التي نُفذت في الخمسينات، بالإكساء بالمواد الطبيعية أو الصناعية، منها: مبنى مصرف الرافدين، وبنك بغداد (المعماري ريتشي، وجبرائيل خمو، عام ١٩٥٧)، والبنك العثماني (المعماري فيليب هيرست وجي. بي. كوبر). وأُدخلت، للمرّة الأولى، أنظمة التبريد والتدفئة المركزية التي اعتُبرت من أساسيات المبنى. كما استُخدمت المصاعد الكهربائية لأول مرة، وانتشرت في المباني المهمّة، خاصّةً المصارف.

وانتشرت وسائل إنشائيةٌ جديدةٌ وتطوّراتٌ تقنيةٌ هندسية، سمحت بتسقيف فضاءاتٍ واسعةٍ، وأثّرت على تكوينات الأبنية، التي أمست أكثر تماسكًا واعتمادًا على الخدمات الميكانيكية بدلًا من الاستجابة للظروف الطبيعية. وشاع استخدام الستائر